رسالتنا

تأليف

سماحة آية الله العظمى الإمام الشهيد السيد محمد باقر الصدر قدس سره

المؤتمر العالمي للإمام الشهيد الصدر قدس سره

رسالتنا

بسم الله الرحمن الرحيم



رسالتنا

١

الشرط الأساسي لنهضة الأُمّة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[1].

الشرط الأساسيّ لِنهضة الأمّة

إنّ الشرط الأساسيّ لنهضة الأُمّة ـ أيّ أُمّةٍ كانت ـ أن يتوفّر لديها المبدأ الصالح الذي يحدّد لها أهدافها وغاياتها، ويضع لها مثلها العليا، ويرسم اتّجاهها في الحياة، فتسير في ضوئه واثقةً من رسالتها، مطمئنةً إلى طريقها، متطلّعةً إلى ما تستهدفه من مثلٍ وغاياتٍ مستوحية من المبدأ وجودها الفكري وكيانها الروحي. ونحن نعني بتوفّر المبدأ الصالح في الأُمّة وجود المبدأ الصحيح أوّلاً، وفهم الأُمّة له ثانياً، وإيمانها به ثالثاً، فإذا استجمعت الأُمّة هذه العناصر الثلاثة فكان لديها مبدأ صحيح تفهمه وتؤمن به أصبح بإمكانها أن تحقّق لنفسها نهضةً

(١) المائدة: ١٥ ـ ١٦.

(١) المائدة: ١٥ ـ ١٦.

حقيقية، وأن توجد التغيير الشامل الكامل في حياتها على أساس ذلك المبدأ، فما كان الله ليغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم، كما دلّ على ذلك التنزيل الحكيم[1].

وأُمّتنا الإسلامية الكريمة لا تفقد في الحقيقة من عناصر الشرط الأساسيّ لنهضتها البنّاءة إلّا واحداً منها، فالمبدأ موجود لديها متمثّل في دينها الإسلامي العظيم الذي لا يزال وسيبقى أبد الدهر أقوى ما يكون على تحمّل أعباء القيادة المبدئية، وتوجيه الأمّة وجهتها المثلى، والإرتفاع بها من نكستها إلى مركزها الوسطيّ من أُمم الأرض جميعاً كما شاء الله لها، والأُمّة الإسلامية كلّها مجمعة على الايمان بهذا المبدأ وتقديسه ديناً وعقيدة، غير أنّ هذا الإيمان ضعيف في الغالب ومحدود لدى كثيرٍ من الأشخاص، وأكبر سببٍ في ذلك عدم امتلاك الأمّة بصورةٍ عامةٍ وغالبيةٍ العنصر الثالث وهو فهم المبدأ، فالأمّة تؤمن بالمبدأ الإسلامي إيماناً إجماعياً ولكنّها لا تفهمه فهماً إجماعياً، وهذا هو التناقض الذي قد يبدو غريباً لأول وهلة، فكيف تؤمن الأُمّة بالمبدأ وتدين له بالولاء وهي لا تفهمه حقّ الفهم ولا تعرف من مفاهيمه وأحكامه وحقائقه إلّا نزراً يسيراً ؟ ! ولكنّ هذا هو الواقع الذي تعيشه الأمّة منذ منيت بالمؤامرات الدنيئة المستترة تارةً والسافرة أُخرى من أبناء الصليبيّين المستعمرين، أعداء الإسلام التاريخيّين، تلك المؤامرات الهائلة التي شنّوها على الأمّة وكيانها حتى انتهت بالغزو الاستعماري المسلّح، فلم يكن للغزاة من همٍّ بعد القضاء على كيان الإسلام الدولي إلّا أن يباعدوا بين الأُمّة ومبدئها. وقامت عملية الفصل هذه بين الأمّة والمبدأ على قدمٍ وساقٍ، وهي تعني سلب الأمّة إيمانها بالمبدأ وفهمها له،

---

(١) نصّ قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسِهم ﴾ . الرعد : ١١ .

ولكن لمّا كان إيمان الأُمّة بالإسلام أقوى من تلك المؤامرات والمخطّطات الاستعمارية جميعاً استطاع أن يثبت وينتصر في المعركة، فظلّت محتفظةً بإيمانها بإسلامها العظيم. وأمّا فهم الأُمّة للمبدأ ومفاهيمه وحقائقه فقد كان هو نقطة الضعف التي نجحت فيها عملية الفصل بين الأمّة والمبدأ، فقد استعمل الغزاة الآثمون كلّ الطرق والأساليب للقضاء على وعي الإسلام من ذهنية الأُمّة وحجب أضوائه وأنواره عنها بما نثروه هنا وهناك من مفاهيمهم وأفكارهم وتشويهاتهم للإسلام المشرق العظيم.

وهكذا أصبحت الأُمّة بعد أن نفّذ أعداؤها فيها مخطّطهم الشنيع وهي لا تعرف من الإسلام شيئاً واضحاً محدّداً أو تعرف ما زوّره المستعمرون من أفكاره وحقائقه. وبهذه الطريقة وجد التناقض العجيب في كيانها، فأصبحت لا تفهم الإسلام فهماً صحيحاً كاملاً بالرغم من أنّها ظلّت باقيةً على إيمانها به.

وبطبيعة الحال أنّ انخفاض الوعي وحجب الصور الحقيقية الزاهية للإسلام عن الأنظار كان سبباً في انخفاض الدرجة المعنوية للإيمان نفسه وفقدانه لكثير من طاقاته الحرارية الجبّارة، فمسألة الأمّة اليوم ـ وهي تملك المبدأ الصحيح وتؤمن به ـ أن تقبل على تفهّم إسلامها ووعي حقائقه واستجلاء كنوزه الخالدة ليملأ الإسلام كيان الأمّة وأفكارها، ويكون محرّكاً حقيقيّاً لها، وقائداً أميناً إلى نهضةٍ حقيقيةٍ شاملة. فالفهم العامّ للمبدأ الإسلامي إذن هو ضرورة الأمّة بالفعل التي تستكمل الأمّة به الشرط الأساسيّ لنهضتها.

وليست هذه «الأضواء» إلّا إشعاعة من نور الإسلام الوهّاج حاولنا أن تنير للأُمّة وتكشف عن شيءٍ من كنوز الإسلام، أو تعكس أنواره على ما يتماوج به واقع الأُمّة من أفكارٍ وأحداث، وهي جزء من حركةٍ فكريةٍ شاملةٍ تدعو

المصلِحين والقادة الإسلاميّين إلى إيجادها والتوفّر على تنميتها وتغذيتها لتعرف الأُمّة طريقها السويّ، وتفهم كيف تفتح الدنيا بالمفتاح الإلٰهيّ الذي أهملته طوال هذه السنين.



رسالتنا

٢

رسالتنا والدعاة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

رسالتنا والدُعاة

إنّ للرسالة الإسلامية خصائصَ ومميّزاتٍ في كلّ الحقول والميادين تبرهن على أنّها أكفأ الرسالات وأجدرها بالدعوة والنجاح والخلود، ومن تلك الميادين التي تبرز فيها خصائص الرسالة الإسلامية قويةً رائعةً الميدان العملي. ميدان الدعوة وحمل لواء الرسالة، فإنّ الدعوة إلى الرسالة الإسلامية تمتاز على أكثر الدعوات إلى مختلف الرسالات الأُخرى بأنّها تستمدّ من الرسالة نفسها وطبيعتها الخاصّة عناصر قوّتها وشروط نجاحها ومقوّماتها الروحية في مجال الجهاد والكفاح. فالرسالة الإسلامية تموّن الدعوة بهذه العناصر والشروط والمقوّمات بما لا يمكن لرسالةٍ أُخرى أن تقوم بذلك، ولهذا تضطرّ كثير من الدعوات أن تستجدي بعض تلك المقوّمات الروحية من جهاتٍ أُخرى غير رسالتها التي تتبنّاها وتحمل رايتها.

وأهمّ تلك المقوّمات الروحية التي تحتاجها كلّ دعوةٍ ذات رسالةٍ مهما كان لونها هي:

أولاً: العقائدية التي تسبغ على الرسالة في نظر الدعوة طابعاً تقديسياً يقينياً، فبمقدار ما يرسخ هذا الطابع التقديسي اليقيني في نفوس الدعاة تزداد اندفاعاتهم وتتضاعف طاقاتهم، لذلك يجهد قادة كلّ دعوةٍ أن يُضفوا ...

الرسالة التي يحملونها لوناً من التقديس العميق، ويغذّوا في نفوس الدعاة اليقين غير المحدود بصحة الرسالة وتفوّقها على كلّ نقاشٍ وجدال، ليتولّد من هذا الايمان اليقيني طاقة حرارية دافعة في مجال العمل والتبشير.

ومن الواضح أنّ طبيعة الرسالة الإسلامية تكوّن لها هذا الطابع في نفوس الدعاة لأنّها ليست نتيجة اجتهادٍ معيّنٍ يكون عرضةً للخطأ أو حصيلة تجاربٍ محدودةٍ قد لا تصوّر الواقع تصويراً كاملاً، وإنّما هي الرسالة الخاتمة التي اصطفاها الله سبحانه للإنسانية، وبعث بها خاتم رسله ﷺ، فهي مع كونها مذهباً للحياة والمجتمع تتمتّع بالطابع الدينيّ الذي يحيطها بالتقديس واليقين المطلق. هذا هو الفارق بينها وبين سائر مذاهب الحياة التي لا تصل في عقيدة أصحابها إلى درجة الدين، ولا تحظى بما يحظى به الدين لدى المتديّنين من يقينيةٍ مطلقة، وفي ضوء هذا الفرق يتبيّن السرّ في ما نطالعه من صلابةٍ عقائديةٍ في حملة رسالة الدين المخلصين، وميوعةٍ أو انخفاضٍ عقائديٍّ في حملة الرسالات الفكرية الأُخرى بالرغم من نبوغهم وعبقريتهم، فليس عجيباً ـ مثلاً ـ أن نرى ماركس وهو منشئ مذهبٍ ودعوةٍ من أشهر مذاهب التاريخ ودعواته يقول: «إنّني لست ماركسياً» بينما يقول داعية مسلم كعليٍّ عليه السلام: «لو كشف لي الغطاء لَما ازددت يقيناً»[1]، فإنّ عقيدة عليٍّ عليه السلام كانت ديناً، ومن طبيعة الدين أن يشعّ في نفوس رجاله المخلصين بهذا اليقين، ويكسب هذه العقائدية المطلقة، وأمّا الماركسية فلم تكن ـ على أبعد تقديرٍ ـ إلّا اجتهاداً علمياً خاصّاً، ولذلك لم تستطع أن تجعل من ماركس نفسه ماركسياً، ولم تستطع بعد ذلك أن تكتسب الصفة القطعية والقدسية العقائدية إلّا بعد أن لعب الماركسيون دوراً كبيراً في رفع الماركسية إلى مستوى

---

(١) بحار الأنوار ٤٠ : ١٥٣، عن مناقب ابن شهرآشوب ٢ : ٣٨.

الدين في عقائديته وقدسيته. وهكذا نعرف أنّ الامتياز الديني للرسالة الإسلامية يجعلها قادرةً على خلق جوٍّ عقائديٍّ كاملٍ في أجواء الدعوة.

وثانياً: الأمل، فإنّ الأمل هو بصيص النور الذي لا تستغني عنه كلّ الدعوات، وإذا فقدت الدعوة أملها في الفوز والنجاح فقدت وجودها ومعناها الحقيقي؛ لأنّ الدعوة إلى ما لا أمل في تحقيقه ضرب من العبث واللهو، ولهذا كان لا بدّ لمختلف الدعوات أن تفتّش عن الأمل وتغذّيه في ضوء الظروف والأحداث، وأن تتصيّده من الظروف والأحداث نفسها. وأمّا الدعوة إلى الرسالة الإسلامية فهي وإن كانت تعتمد في آمالها على الظروف والملابسات ولكنّها تعتمد قبل ذلك على الأمل الذي تزوّدها به طبيعة الرسالة الإسلامية نفسها، فإنّ هذه الرسالة تفتح بنفسها للدعاة أجواءً من الأمل وتقوّي من عزيمتهم ورجائهم، ولا أدلّ على أنّ الدعاة الإسلاميّين يقتبسون أملهم من الرسالة نفسها قبل أن يستوحوه من الظروف والأحداث.

إنّ الطليعة الإسلامية التي عاصرت محنة الإسلام في مكّة وهو يومئذٍ وليد ضعيف قد تجمّعت القوى على سحقه، وتألّب الأعداء على خنقه، كانت هذه الطليعة تهتزّ أملاً بل يقيناً بتهديم عروش الظلم، كلّ العروش، وإنقاذ بلاد كسرى وقيصر من كسرى وقيصر. ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ هذا الأمل الحيّ القويّ من أكبر القوى المعنوية التي كان يتمتّع بها أُولئك المسلمون ويستعينون بها على الصبر والاستبسال في المحنة، ولم يكن من الممكن أن يخلق هذا الأمل في نفوس الدعاة شيئاً سوى رسالةٍ لها طبيعة الرسالة الإسلامية وطابعها الإلٰهيّ اليقيني ومددها الروحيّ والمعنوي، فلم يكن المسلم ليستهين أو يضعف أمام الشدائد وبيده مشعل السماء ومن ورائه الوعود الإلهية بالنصر والتأييد. ولا زالت حتى الآن الرسالة الإسلامية ـ كما كانت ـ قادرةً على بعث الأمل في نفوس الدعاة، بل

هي تبعثه فعلاً بما يشعّ في نصوصها القرآنية والنبوية من وعدٍ بالنصر إذا خلصت النية وأحكمت الخطّة على أساس الإسلام.

وثالثاً : الدافع الذاتي، فإنّ الإنسان العادي مهما تصل به دوافعه المثالية فإنّ للدافع الذاتي أثراً بليغاً في حياته واندفاعه، ومن هنا تنشأ المشكلة في كثيرٍ من الدعوات والرسالات، لأنّ الرسالة تتطلّب المثالية في الدوافع وروح التضحية والمفاداة، والدعوة تتطلّب شيئاً من الدوافع الذاتية التي تزيد من حرارتها وقوتها واندفاعها؛ ولأجل ذلك نجد أنّ الدعاة كثيراً ما يغرقون بعد زمنٍ قصيرٍ أو طويلٍ من دعوتهم أو انتصارهم في الدوافع الذاتية، وتخبو في نفوسهم تلك الدوافع المثالية بالتدريج لتحلّ مكانها دوافع الذات، وتصبح الرسالة أداةً ومبرّراً لتلبية هذه الدوافع بعد أن فقدت في نفوس الدعاة دوافعها المثالية. وأمّا الإسلام فهو يختلف عن بقية الرسالات في قدرته على تسخير الدوافع الأنانية والمثالية معاً لصالحه، فإنّ طبيعة الرسالة الإسلامية إقناع المسلم بأنّ الإخلاص لهذه الرسالة والدعوة إليها والتضحية في سبيلها مكسب شخصيّ قبل أن يكون مكسباً مثالياً أو اجتماعياً، وربح لجزاءٍ ونعيمٍ لا حدود له قبل أن يكون عاطفةً مثالية أو اندفاعاً تحمسياً. وهكذا تجنّد الرسالة الإسلامية جميع الدوافع الإنسانية لصالحها، وتجعل من الدوافع الأنانية دوافع خيّرةً تواكب الدوافع المثالية في مقتضياتها ومتطلّباتها، فالرسالة الإسلامية إذن :

رسالة عقيدةٍ وإيمان.

رسالة أملٍ ورجاء.

ورسالة تجنيدٍ لكلّ الدوافع والقوى الإنسانية.



رسالتنا

٣

رسالتنا

يجب أن تكون قاعدة للعاطفة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1]

ألم يأنِ لهؤلاء الذين أضاء الإيمان عقولهم وتمكّنت العقيدة من نفوسهم، وتبيّن لهم الحقّ متجسّداً في أشرف رسالات السماء أن يفجّر هذا الإيمان في نفوسهم موجاً من العاطفة، ويشعّ فيها انفعالاً خاصّاً يتّفق مع طبيعة ذلك الإيمان وجوهره حتّى تمتلئ قلوبهم بالخشوع للحقّ والإنقياد له والانصياع إلى أوامره ونواهيه.

بهذا يعلن الإسلام عن ضرورة ازدواج الفكر والعاطفة، واجتماع العقيدة وما تتطلّبه من ألوان الانفعال والاحساس حتى تدبّ الحياة في العقيدة وتصبح مصدر حركةٍ وقوة دفعٍ، وليست مجرّد فكرةٍ عقليةٍ لا يخفق ولا يستجيب لها الحسّ ولا تتدفّق بالحياة.

وهذه هي السياسة العامّة للدعوة الإسلامية. فهي دعوة فكرٍ وعاطفة، أو

---

(١) الحديد: ١٦.

بالأحرى دعوة إلى عقيدةٍ بكلّ ما تتطلّبه من مفاهيم وعواطف، وليست دعوةً فكريةً خالصةً تستهدف تطوير العقيدة طبقاً لها وتقف عند هذا الحدّ كالمذاهب الفلسفية المجرّدة، كما أنّها ليست في مستوى الدعوات العاطفية المنخفضة التي تستغلّ العاطفة فحسب وتعني بتربيتها دون أن تقوم على أُسسٍ فكريةٍ خاصّة، بل للدعوة الإسلامية طريقتها الخاصّة في مزج الفكرة بالعاطفة، وتفجير العواطف على أساسٍ فكري، وبذلك تبقى محتفظة بالطابع الفكري بالرغم من اهتمامها بالجانب العاطفي وتنميته في الشخصية الإسلامية، لأنّها تستوحي كلّ عاطفةٍ من مفهومٍ معيّنٍ من مفاهيمها عن الحياة، والكون والإنسان.

فالعواطف الإسلامية دائماً نتيجة المفاهيم والأفكار الإسلامية وانعكاسات انفعالية لها. ولهذا نجد أنّ الإسلام يهيّئ كلّ عقيدةٍ من عقائده وكلّ مفهومٍ من مفاهيمه ليكون ينبوعاً لعاطفةٍ خاصّةٍ تنسجم مع ذلك المفهوم أو تلك العقيدة وتتّفق وإيّاهما، كما وجدنا في الآية الكريمة كيف ربط بين الإيمان بالشريعة الحقّة والخشوع لها، هذا الخشوع الذي هو لون من الانفعال العاطفي يتطلّبه ذلك الإيمان ويصبح بدونه مجرّداً عن أيّة فعاليةٍ إيجابية.

والسبب في هذا الربط بين المفاهيم والعواطف في الإسلام واضح كلّ الوضوح؛ لأنّ الإسلام لا يريد المفاهيم والأفكار بمعزلٍ عن العمل والتطبيق، وإنّما يريدها قوىً دافعةً لبناء حياةٍ كاملةٍ في إطارها وضمن حدودها، ومن الواضح أنّ الأفكار والمفاهيم لا تصبح كذلك إلّا حين تتّخذ أشكالاً عاطفية، وحين تخلق الإنفعالات التي تناسبها والعواطف التي تساندها تتّخذ هذه العواطف موقفاً إيجابياً في توجيه الحياة العملية والسلوك العامّ. فمفهوم المساواة ـ مثلاً ـ الذي هو من أهمّ المفاهيم التي بشّر بها الإسلام لا يمكن أن يثمر في الحقل العملي المثمر المطلوب ما لم تنبثق من هذا المفهوم عاطفة كعاطفة الأُخوّة العامّة التي

عمل الإسلام لإيجادها في نفس المسلم وربطها بمفهومه الخاصّ عن المساواة ليصاغ المفهوم في شعورٍ عاطفيٍّ دفّاقٍ قادرٍ على الحركة والتوجيه طبقاً لمتطلّبات المفهوم.

وعلى ضوء ذلك نستطيع أن نرتّب ما يلي:

أولاً: أنّ العقيدة كما يجب أن تكون قاعدةً فكريةً للشخصية الإسلامية وحجر الزواية في تفكيرنا ومفاهيمنا طبقاً لما أوضحناه في العدد السابق كذلك يجب أن تكون قاعدةً للعواطف التي تنشأ عليها الشخصية الإسلامية وتُنَمَّى فيها بمختلف الوسائل والأساليب، لأنّ العواطف التي يرتضيها الإسلام للمسلم هي العواطف الفكرية، أي العواطف التي ترتكز على مفاهيم فكريةٍ معيّنة.

وحيث إنّ الإسلام هو القاعدة الأساسية للمفاهيم الفكرية التي تتكوّن منها العقلية الإسلامية كان من نتيجة ذلك طبيعياً أن يكون هو القاعدة واليـنبوع الأساسي لأعمق العواطف التي تتكوّن منها النفسية الإسلامية، وبمقدار ما تكون الرسالة أكثر عمقاً وتركّزاً في موضعها الرئيسي من عواطف المسلم ترتفع شخصيته النفسية ويكتمل طابعه الإسلامي، كما ترتفع شخصيته الفكرية ويكتمل طابعه بمقدار وجود القاعدة الإسلامية وتمركزها فيها.

وقد عبّر القرآن الكريم تعبيراً رائعاً عن العقيدة الإسلامية بصفتها اليـنبوع الأساسيّ لأعمق العواطف في النفسية الإسلامية، إذ قال: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

---

(١) التوبة: ٢٤.

فالعقيدة الإسلامية ينبغي أن تكون في نظر الإسلام ينبوعاً لأعمق العواطف في نفس المسلم، كعاطفة الحبّ العميق لله ولرسوله ولرسالته التي تسموا على كلّ عاطفةٍ وتهون في سبيلها كلُّ العلائق: علائق الأبوّة، والبنوّة، والأخوّة، والزوجية، والعشيرة، وعلائق المال والتجارة، والمسكن، ويقوم على أساسها التقدير العاطفي لكلّ موقفٍ ولكلّ واقع.

ثانياً: أنّ الطريقة العامّة للإسلام لمّا كانت قائمةً على مزج الفكرة بالعاطفة جاز للدعوة الإسلامية أن تمزج الفكرة بالعاطفة في تبشيرها ووسائلها، وأن تعتبر العواطف الموجودة في المجتمع التي تساعدها على إنجاح سياستها من القوى التي تتملّكها في سبيل التبشير، ولكن شريطة أن يتوفّر في تلك العواطف الطابع الإسلامي بأن تكون قائمةً على مفاهيم فكريةٍ معيّنةٍ تتّفق ووجهة نظر الإسلام العامّة.

وأمّا العواطف السطحية المائعة التي لا تستند إلى مفهوم والتي يثيرها الإحساس أكثر ممّا يثيرها الفكر فليس من الصحيح للدعوة أن ترتكز على هذه العواطف؛ لأنّ انتشار هذه العواطف المنخفضة الذي يؤدّي إلى سيطرتها في المجتمع يشكلّ خطراً على الدعوات الفكرية التي تحاول الارتفاع بذهنية الأُمّة إلى المستوى الفكري والتسامي بها عن المشاعر المرتجلة والأحاسيس الساذجة.

وأكثر من تلك العواطف السطحية خطراً العواطف التي تستمدّ جذورها النفسية من مفاهيم فكريةٍ تتعارض مع مفاهيم الدعوة، وإن أمكن للدعوة من تجنّد تلك العواطف في سبيل الوصول إلى هدفٍ معيّنٍ وتحطيم قوةٍ معارضةٍ في الميدان، أو أن تستخدمها وتستثمرها إلى فترةٍ معيّنة، كما تفعل بعض الدعوات التي تتستّر في كثيرٍ من مراحلها بواجهاتٍ تستهوي عواطف الناس بالرغم من

مناقضة مفاهيمها لتلك العواطف.

إنّ دعوةً فكريةً كالدعوة الإسلامية التي تستهدف قبل كلّ شيء امتلاك واقع الأُمّة العقلي والنفسي وصبّه في قالبه الفكري والعاطفي لا يمكنها بحالٍ من الأحوال أن تنتهز العواطف التي تقوم على غير مفاهيمها وتستغلّ تلك العواطف في سبيل مصلحتها فتواكبها إلى نصف الطريق، لأنّ في مواكبتها مساندةً للواقع الفاسد الذي لم تقم الدعوة إلّا لتغييره وقلبه.

وعلى هذا فالسياسة العامّة للدعوة الإسلامية تجاه العواطف الموجودة في الأُمّة هي استثمار ما كان منها إسلامياً لحساب الرسالة، وللدفع بها إلى الأمام في معركتها مع الكفر القائمة في كلّ مكان، والتعالي بالأُمّة عن العواطف المنخفضة، وكنس ما يوجد لديها من عواطف ذات طابعٍ فكريٍّ معارضٍ للإسلام، وتبديلها بعواطف صحيحةٍ تدور في فلك الرسالة الإسلامية. وبكلمة واحدة: إنّ الدعوة تحاول أن تربط دائماً بين المفاهيم والعواطف وتُفَجِّر في نفسية الأُمّة العواطف التي يتوخّاها الإسلام من تلك المفاهيم.

ويقاس مقدار نجاحها في الحقل الفكري بمدى تغلغل مفاهيمها في فكر الأُمّة، وفي المجال النفسي بمدى انسجام عواطف الأُمّة مع تلك المفاهيم، وبمقدار ما يُولّد الإيمان بالرسالة من عاطفة الحبّ لها والمفاداة في سبيلها والخشوع لها خشوعاً ينعكس في كلّ قولٍ وعمل: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[1].

صدق الله العظيم

---

(١) الحديد: ١٦.



رسالتنا

٤

رسالتنا

ومعالمها الرئيسيّة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رسالتُنا ومعالمها الرئيسيّة

لكلّ رسالةٍ معالمها الرئيسية التي تحدّد كيانها الخاصّ وتميّزه عن كيانات الرسالات الأُخرى، وتختلف الرسالات في هذه المعالم تبعاً لاختلافها فيما ترتكز عليه من أفكارٍ ومفاهيم، ويمكننا تلخيص المعالم الرئيسية لرسالتنا الإسلامية في الأُمور التالية:

أولاً: النظرة الروحية إلى الحياة والكون بصورةٍ عامّة، ولا تعني الروحية هذه إنكار المعاني المادّية للكون أو حصر نطاق الوجود في الروح والروحيات كما يشاء الكثير من الكتّاب الاوروبّيين أن يفسّروا النظرة الروحية بذلك. فالإسلام يعترف بالحقائق الروحية والمادية، وإنّما يربط تلك الحقائق جميعاً بسببٍ مشتركٍ أعمق وهو الله تعالى. فالنظرة الروحية في جوهرها إذن عبارة عن إدراك صلة الحياة والكون بالله وانبثاقها عن قدرته وتقديره، وبهذا المعنى يمكن أن نعتبر الكون بصورة عامة روحياً، لأن تلك الصلة بالمبدع الخلّاق ـ صلة الخلق والإبداع ـ تشمل المادة كما تشمل الروح وتنفذ إلى سياستها جميع محتويات الكون وحقائقه.

وليست هذه النظرة الروحية التي تتمثّل فيها الحقيقة الكبرى للكون نظريةً مجرّدة، وإنّما تتّصل بالوجود العملي للإنسان كلّ الإتّصال، وتحدّد له موقفه من عالمه الذي يعيشه والحياة التي يحياها ويستمد الإنسان منها، أو على ضوئها اتّجاهه العام الذي ينعكس في نشاطاته وأفعاله.

ثانياً : الطريقة العقلية في التفكير، إذ توجد طريقتان للتفكير :

إحداهما : الطريقة العقلية التي تعتبر العقل حاكماً نهائياً ومقياساً أساسياً تقاس على ضوئه الأفكار والمعلومات لامتحان مدى صحّتها وموضوعيتها.

والأُخرى : هي الطريقة التجريبية التي تُقصي العقل عن هذا المجال وتسلب منه وظيفته الأساسية هذه في الحياة الفكرية، وتضع موضعه التجربة مدّعيةً أنّها هي الأساس الوحيد لكلّ ما يمكن أن يتوصّل إليه الإنسان من حقائق واستنتاجات.

والواقع أنّ كلّاً من العقليّين والتجريبيّين وقع في خطأ كانت له أسوأ النتائج. فالعقليون الذين نادوا بالعقل مقياساً لم يطبّقوا عملياً هذا المقياس وحسب، وإنّما أفرطوا فحصروا بحوثهم في النطاق العقلي وكلّفوا العقل المجرّد أن يزوّدهم بالحقائق والمعلومات حتى في الميادين والمجالات التي ليست من حقّه، وبذلك ضاعت عليهم فرصة الاستفادة من المعين التجريبي وما يتدفّق به من حقائق ونتائج.

ومن أوضح الأمثلة لذلك : ما شغل بال العقليّين قروناً متطاولةً من الزمان حين حاولوا أن يتعرّفوا على ما إذا كانت المادة متكوّنةً من أجزاءٍ وذرّاتٍ يتخلّلها الفراغ أو متّصلةً إتّصالاً حقيقياً لا فراغ فيه.

لقد خيّل للعقليّين أنّهم يستطيعون أن يصلوا إلى الكلمة النهائية في البحث عن طريق العقل وحده، ومنها نشأت النظريتان : «الاتّصالية، والانفصالية»، وقام الصراع عنيفاً بين هؤلاء وأُولئك من الاتّصاليّين والانفصاليّين بعيداً عن التجربة ووسائلها، فلم يصلوا إلى نتيجةٍ حاسمة، لا لشيءٍ إلّا لأنّ العقل بطبيعته حياديٌّ في مثل هذا الموقف وما يشابهه من المواقف التحليلية للكون، فهو لا يستطيع أن يدرك بصورةٍ مستقلّة عن التجربة ما إذا كان الجسم مؤلّفاً من ذرّاتٍ أم لا. ولو أنّ العقليّين إنصرفوا إلى التجربة واستنطقوها ثمّ رجعوا إلى العقل كمفسّرٍ نهائيٍّ لظواهر التجربة ونتائجها لوصلوا إلى خيرٍ كبيرٍ هو أفضل ألف مرّةٍ من هذا الجدل

العقيم. وهكذا أخطأ العقليّون حين لم يعرفوا ـ عملياً على الأقلّ ـ ما هي وظائف العقل بصفته مقياساً أساسياً للفكر.

وكما أخطأ هؤلاء أخطأ التجريبيون أيضاً الذين اتّجهوا اتجاهاً معاكساً تماماً كردّ فعلٍ للإتجاه العقلي السابق، فآمنوا بالتجربة وقدرتها على استكشاف الحقائق والأسرار، وظنّوا في غمرةٍ من نشوة الظفر بما توصّلوا إليه من معلوماتٍ تجريبيةٍ أنّهم استغنوا عن خدمات العقل لأنّه ممّا لم تتكشّف عنه التجربة بعد. وكان نتائج ذلك أن تحرّر كثير من أنصار التجربة المعملية، وخسر العقليون الثروة التجريبية الضخمة، كذلك خسر التجريبيون الثروة العقلية الروحية الجبّارة.

وأمّا الإسلام فقد وقف من الفريقين الموقف الصحيح، ورسم الطريق اللاحب للفكر الإنساني الذي يضمن للإنسان أفضل النتائج في كلّ الميادين، ويحول بينه وبين الألوان العقيمة من الجدل الذي مُنِيَ به العقليون، كما يحول بينه وبين المادّية المُسِفَّة التي انتهى التجريبيون إليها. وتلخّص هذا الطريق في أنّ العقل يجب أن يؤخذ كمقياسٍ للأفكار، وحاكم فصلٍ نُلقي بين يديه المعلومات التي حصل عليها الإنسان عن طريق الملاحظة الحسّية أو التجربة العملية، لينظّمها ويستنتج منها ما تنتجه من حقائق مادّية أو حقائق خارجةٍ عن حدود المادة: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا... ﴾[1]. فليس السير في الأرض وما يشير إليه من ألوان التأمّل التجريبي في حقائقها مغنياً عن العقل، وليس العقل مغنياً عن السير في الأرض ودراسة حقائقها بالطرق الحسّية والتجريبية.

فالأخذ بالتجربة واستثمارها واستنطاقها صحيح كلّ الصحّة ولكن شريطة أن لا يلغى العقل ولا يحبس الإنسان نفسه في حدود حِسِّهِ التجريبي، بل يحكّم عقله فيما يحسّ ويجرّب ليستنتج ما وراء التجربة استنتاجاً عقلياً متّسقاً.

---

(١) الحجّ: ٤٦.

ثالثاً : المقياس العمليّ العامّ الذي بَشَّر به الإسلام على أساس نظرته العامّة للحياة والكون، فما دام الإنسان مرتبطاً بخالقٍ وهبه الحياة وكلّ محتوياتها وإطاراتها المادية والمعنوية يجب أن يكون مقياسه في الحياة هو رضا الله تعالى بأن يكيّف حياته طبقاً لرضاه جل شأنه : ﴿ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[1]. وهذا المقياس العمليّ يشمل جميع الميادين العملية للإنسان من فرديةٍ أو اجتماعية، ويشمل مختلف الحقول الاجتماعية من سياسيةٍ واقتصاديةٍ وأخلاقية.

فالإسلام يحتّم على الإنسان أن يسير في كلّ هذه المجالات طبقاً لرضا الله سبحانه وتوجيهه. ويمتاز هذا المقياس عن أيّ مقياسٍ آخر يقدّمه فلاسفة الأخلاق عادةً بمميّزاتٍ أساسية، فهو مقياس من النظرة الروحية العامة إلى الحياة والكون وليس مقياساً مرتجلاً، كما أنّه يزيل كلّ تناقضٍ من الصعيد العملي، على عكس كثيرٍ من المقاييس التي يقدّمها فلاسفة الأخلاق كاللذّة أو المنفعة ونحوهما من مفاهيم غائمةٍ أو غير محدّدة، فإنّ الناس في المجتمع الواحد يتناقضون في لذّاتهم ومنافعهم. كما تتناقض المجتمعات البشرية المختلفة في هذه المقاييس أيضاً، فما كان فيه منفعة فردٍ أو مجتمع أو كان ملذّاً لهما قد يكون مضرّاً بفردٍ أو بمجتمعٍ آخر. وإيمان الإنسانية بهذه المقاييس الخلقية الناقصة هو الذي جرّ عليها كثيراً من ألوان البلاء وألقى بها في دوامةٍ من الصراع والنزاع. وأمّا حين تأخذ الإنسانية بالمقياس العمليّ الذي ينادي به الإسلام فسوف يزول كلّ لونٍ من ألوان الصراع والتناقض، لأنّ رضا الله تعالى لا يتناقض ولا يختلف.

وبهذا المقياس وحده يمكن إنشاء المجتمع المطمئن المتعاون الذي إن ساده شيء من روح التنافس فإنّما يوجد هذا التنافس على مقدار ما يحصل عليه من رضا الله، وليس على مقدار ما يكسبه من المصالح الخاصّة والمنافع المادية.

---

(١) آل عمران : ١٧٤.



رسالتنا

يجب أن تكون قاعدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

رسالتنا يجب أن تكون قاعدة

إنّ للحضارة الغربية بأفكارها ومفاهيمها وكيانها الثقافي عامّةً قاعدةً فكريةً تستند إليها وهي «الديمقراطية»، أو بالأحرى الحرّيات الرئيسية في المجالات الفكرية والدينية والسياسية والاقتصادية، فإنّ هذه الحرّيات بمفهومها الحضاريّ الغربيّ هي حجر الزاوية في ثقافة الغرب، والإطار الفكريّ الذي تدور في نطاقه الأفكار والمفاهيم الغربية عن الإنسان والحياة والكون والمجتمع، وحتّى أنّه لعب دوراً رئيسياً في تحديد الاتّجاه العامّ لمفكّري الغرب فيما يسمّونه بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، فلم تستطع البحوث الإنسانية لهؤلاء المفكّرين أن تتجرّد عن تأثير الرسالة التي يعتنقها الباحثون كقاعدةٍ عامّة.

وليس تأثّر قوانين الاقتصاد السياسي بالحرّية الاقتصادية وتأثّر الاتّجاهات السيكولوجية لبعض مدارس علم النفس التحليلي التي يتزعّمها «فرويد» وغيره من اللاشعوريّين بالحرّية الشخصية إلّا من الأمثلة الواضحة لما نؤكّد عليه من الصلة الوثيقة بين أفكار الحضارة الغربية وبين القاعدة الفكرية التي تستند إليها ورسالتها الإجتماعية التي تدعو وتبشّر بها.

وكذلك الأمر تماماً فيما يتّصل بالحضارة الماركسية التي تنافس الحضارة الرأسمالية في كلّ الميادين، فإنّ رسالتها الفكرية التي تدعو إلى نظرةٍ ماديةٍ معيّنةٍ

تجاه الكون والحياة والمجتمع والتاريخ هي القطب المركزيّ الذي ينعكس إلى حدٍّ قصير أو طويل في كلّ المفاهيم والأفكار الحضارية التي تتبنّاها الماركسية ويؤمن بها مفكّروها.

ونحن بطبيعة الحال لا نعني من احتلال الرسالة مركز القاعدة من التفكير في الحضارة الأُوروبّية أنّ الرسالة استطاعت أن تموّن المفكّر مباشرةً بكلّ ما يحتاجه من مفاهيم ومعارف في كلّ الحقول والميادين إلى الدرجة التي تصبح كلّ معرفةٍ منبثقةً عن الرسالة ومتفرّعةً عن القاعدة الرئيسية المفترضة، بل الواقع أنّ وضع الرسالة في الموضع الرئيسي من التفكير الحضاري إنّما يعني محاولة التوفيق بين جوهر الرسالة وروحها وبين الأفكار الحضارية المتبنّاة، إذ من المنطقيّ والطبيعيّ أنّه ما دامت الرسالة صحيحةً فعليها أن ترفض كلّ فكرةٍ تتّصل بالميادين الإنسانية إذا كانت تناقض تلك الرسالة. فالأفكار التي تتكوّن منها كلّ حضارةٍ ذات رسالةٍ تخضع لمقاييس تلك الرسالة وتتجنّب مناقضتها، سواء أكانت مستنبطةً منها أم لا.

هذا هو الواقع الذي يتبيّن بكلّ وضوحٍ لدى دراسة كلٍّ من الكيانين الحضاريّين المتصارعين اليوم على مسرح التفكير الأُوروبّي.

وأمّا موقفنا من هذا الواقع فهو:

أولاً: أن نكون على حظٍّ عظيمٍ من الدقّة والوعي حينما نبحث عن الأفكار الأُوروبّية، لأجل أن نستطيع تعريتها عن إطارها الرسالي، والتعرّف على مدى صلتها بهذا الإطار وتأثّرها به.

وهذا هو الموقف الوسط الذي يجب أن يقفه المسلم الواعي من كلّ تفكيرٍ أُوروبّيٍّ يتّصل من قريبٍ أو بعيدٍ بالحقول التي تعالجها الرسالة وتمتّد إليها القاعدة الفكرية، فليس من الصحيح إغفال هذه الناحية الخطيرة (ناحية الصلة بين الفكرة ودراسة الفكرة) بغضّ النظر عمّا قد يكون لها من إطارٍ خاصٍّ، أو قد يكون فيها

من استيحاءاتٍ مستمَدّةٍ من القاعدة الفكرية، كما يفعل كثير من الباحثين المسلمين اليوم مع أفكار كثيرة من علماء الاجتماع والنفس والتاريخ الأوربيين، فإنّ أول نقطةٍ يجب التأكّد منها قبل كلّ شيءٍ هي البحث عن مدى صلة الفكرة المبحوث عنها بالقاعدة التي ثبت لدينا خطؤها، وعلى ضوء هذه الصلة يجب أن تتركّز نظرتنا إلى الفكرة والحكم لها أو عليها بما نستخلصه من البحث والدراسة.

كما أنّه ليس من الصحيح أيضاً ما يتّجه إليه بعض الدعاة المسلمين من الحكم على كلّ تفكيرٍ أُوروبّيٍّ يتّصل بالحياة الإنسانية بأنّه خطأ لأنّه مستنبط من القاعدة، وما دامت القاعدة خطأً فما يستنبط منها خطأ أيضاً، فإنّ استنباط الفكرة من القاعدة في المجالات النظرية لا يعني أنّها مستنتجة منها استنتاجاً ومتوقّفة في مصيرها على القاعدة نفسها، وإنّما يعني ـ كما ألمعنا إليه ـ أنّ الفكرة صيغت بالشكل الذي لا يتناقض مع تلك القاعدة، سواء أكانت مستَمَدّةً منها بصورةٍ مباشرةٍ أم لا، والقاعدة وإن كانت خطأً ولكن ليس من الضروري في كلّ فكرةٍ لا تتناقض مع الخطأ أن تكون خطأً.

وثانياً: من واجب المسلمين الواعين أن يجعلوا من الإسلام قاعدةً فكريةً وإطاراً عامّاً لكلّ ما يتبنّون من أفكارٍ حضاريةٍ ومفاهيم عن الكون والحياة والإنسان والمجتمع، ولا شكّ أنّ العقيدة الدينية نفسها تعني هذا الشيء وتفرضه موجوداً لدى المتديّن، غير أنّ العقيدة الدينية لمّا كانت تعيش اليوم في نفوس كثيرٍ من الناس مجرّدةً عن وعيٍ حقيقيٍّ يسندها نجد أنّ جمهرةً من المسلمين لا يُعْون المكان الطبيعيّ الذي يجب أن تحتلّه رسالتنا الفكرية الأُصلية من التفكير العامّ.

وليس هذا الفرق الذي نجده بين رسالتنا الإسلامية والرسالات الأُوروبّية في مواضعها من التفكير العامّ ناشئاً عن طبيعة تلك الرسالة، وإنّما هو نتيجة الإختلاف فيما يرافق كلّ رسالةٍ في ذهنية أصحابها من درجة الوعي والشعور.

ولا نشّك أنّ هذا الإحساس الأليم بالحاجة إلى الرسالة البنّاءة في كلّ الميادين الفكرية والعملية، هذا الإحساس الذي يسيطر على الأمّة، وأنّ هذه اليقظة الخيّرة التي بدأت تباشيرها تبدو هنا وهناك، وأنّ هذا الموج المعنويّ المتزايد الذي بدأ يفجّر تيّاراً من الشعور الإسلامي لا نشكّ في أنّ هذا كلّه يؤكّد أنّ رسالتنا المقدّسة إنّما بدأت تسير في طريقها إلى مركزها الطبيعي، إلى مركز القاعدة الفكرية من الذهنية الإسلامية، وذلك حينما يستأنف المسلمون إيمانهم بالرسالة إيمان وعي لا إيمان تقليد، وإخلاصهم لها إخلاصاً أصيلاً لا إخلاصاً سطحياً يعتمد على الوراثة والبيئة فحسب:

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1].

---

(١) فصّلت: ٥٣.

فهرس الموضوعات